

ابن هانيء الأندلسي و فنون شعره

سيد خليل باستان*

أستاذ مشارك بجامعة العلامة الطباطبائي - طهران

الملخص

تمّ لا شك فيه أن للأدباء مكانة مرموقة عند الجماهير والنقاد. وعلى إثرها يرتقي بعضهم إلى نجوم السماء فتبدر من الآخرين ولاسيما أصحاب النقد أمارات الحسد؛ فيعظمون الأدباء تارة و يحقروهم أخرى وذلك طبقاً لخواصهم فتذهب التقييم العلمية و المعايير الأخلاقية سدى.

علماً بأن ما توصل إليه شاعرنا في الأدب وحاز على رتبة متني الغرب في الشعر، كثر حساده و زادت نار الغضب لدى أعدائه فاعترض الأديب للتهم و أصيب بالفتن وأحياناً بالقتل.

الكلمات الدليلية: ابن هاني - حياته - شهادته - أدبه.

*. E-mail: seyedkhalil@hotmail.com

المقدمة

- ١: احتوت هذه المقالة على المعلومات المعروفة عن ابن هانئ عند أصحاب العلم و الفن، و إنما ذكرناها من باب «فذكر إن الذكرى تنفع المؤمنين».
- ٢: ركزنا على موضوع قتل ابن هانئ، وتضارب الآراء من قبل الكتاب، في هذا المجال، وإن أصح الأقوال هو الشهادة.
- ٣: أشرنا إلى آيات نبوغه في الأدب و الفن، مشيرين إلى سمات أدبه المتعالي، رادين اتهامات الغلو عنه، ذاكرين نماذج سامية من معجزاته في الشعر.

ابن هانئ: في سطور

١: حياته

١-١ نسبه و ولادته

هو أبو القاسم أو أبو الحسن محمد بن هانئ الأندلسي الأزدي، و يرجعون نسبه إلى آل المهلب ابن أبي صفرة. كان أبوه هانئ شاعراً في بعض قرى المهديّة بإفريقيا فانتقل إلى الأندلس. فولد له محمد سنة ٣٢٦هـ في إشبيلية، و نشأ بها معاصراً للممتني. (الفاخوري، بلا، ٨٢٨؛ شيخو، ١٩٨٨ م، ج ٥: (١)

١-٢ خلفاء عصره

لقد عاصر من الخلفاء طائفتين اثنتين؛ الأولى في الأندلس و هم الخلفاء و الأمراء الأمويون و الثانية في مصر و هم الخلفاء الفاطميون و أمراهم، و إليك التفاصيل حسب ما ذكره المؤرخون:

الخلفاء الأمويون

أ: أتصل بعامل إشبيلية زمن المستنصر الأموي و مدحه بغر القصائد، فأحلّه منزلة سنبة، و أغدق عليه العطايا.

باء: تقرّب من صاحب إشبيلية و حظي عنده، وكان معاصراً لعبد الرحمن الناصر و ابنه الحكم.
(الأميني، بلا، ٢٠)

الخلفاء الفاطميون

أ: و لحق بالمسيلة فيبالغ و إليها جعفر بن يحيى و أخوه في إكرام و فادته ثم طلبه المعزّ لدين الله فأنتهى إليه و لقي منه حفاوة و خرج معه إلى الديار المصرية.

باء: جاء شاعرنا إلى المغرب و اتصل هناك بجوهر قائد المنصور الفاطمي فمدحه و ساعده الخطّ فقرّبه المعزّ بن المنصور إليه، و أغدق عليه العطايا. و لما فتح جوهر مصر و مضى إليه المعزّ، تخلّف عنه الشاعر ريثما يأخذ عياله و يلحق به.

جيم: و قيل خرج منها إلى عدوة المغرب و كان عمره ٢٧ سنة ثم ارتحل إلى جعفر و يحيى ابني غليون في المسيلة وهي مدينة على الزاب، فمدحهما و بالغاً في إكرامه، و ما لبث أن عرف به المعزّ لدين الله فطلبه إليه و كرّم و فادته و مدحه ابن هاني و سلّم عليه بالخلافة، و مدح قائده جوهر فاتح مصر.

٣-١ شهادته

قيل توفي في برقة بكرة الأربعاء لسبع ليال يقين من رجب سنة ٣٦٢ و عمره ٣٦ سنة (المناشي، بلا، ج ٢: ١٩٨) ولكن السيد العلامة الصدر أقرّ باستشهاده قائلاً: قُتل على التشيع. (العلامة الصدر، بلا، ص ٢٠٧)

جاءت أقوال المؤرخين في قتله متضاربة و الكلّ يجرّ النار لقرصته و يحاول أن يتخذ الحقّ بجانبه فأخذوا يشفعون كلامهم بأدلة في الظاهر مختلفة و في الباطن متحدة. و من أفضل الأدلة التي استدلوها على قتله - نذكره ملخصاً - أنه شرب الخمر فسكر ثم عربد فقتل. ولكن إن سلّمنا بهذا الكلام فإن هنا سؤالاً يطرح نفسه علينا في هذا المجال ألا و هو هل جزء السكر في الشريعة الإسلامية هو القتل؟ أم له حدّ آخر؟ و الجواب واضح أن القسم الثاني هو المقرر في الشريعة. إذن فلمإذا قُتل؟ أظنّ أنّ المسألة واضحة جداً، و ذلك لأجل حبّه لأهل البيت (ع)، هو السبب الرئيسي في القتل. ولكن إن بدا هذا السبب ظاهراً للعيان فيسكون مرفوضاً من قبل الناس و يعاون القتل مجرمين و لهذا وجدوا خير ذريعة لقتله

هو السكر والسكران كالمجنون ولا على المجنون حرج. ولا نذهب بعيداً حتى أن بعض الأنظمة اليوم يعمل بمثل هذه الخزعبلات. فإنه خير غطاء للتستر على جرائمه.

وإذا سلمنا أنه شرب الخمر فيالله عليكم هل سمعتم من قبل يقتل شارب الخمر؟ فكم من شارب خمر في صدر الإسلام و ليو مننا هذا قد قتل؟ فهل أقيم حدّ القتل على سكران؟
الحقّ يفضح الباطل مهما طال الزمان ودار.

و الآن نذكر جملة من أقوال القوم في هذا المجال ثم احكم أيها القارئ كما تشاء:

- قال صاحب المجالي الحديثة ما نصه: «ولما توجه المعزّ إلى مصر شيّعه ابن هاني و رجع إلى المغرب فتجهّز و أخذ عياله و التحق به. فلماً وصل إلى برقة، أضافه شخص من أهلها فأقام عنده أياماً في مجلس الأُنس فيقال إنه عربد عليهم فقتلوه و قيل إنه خرج من تلك الدار و هو سكران فنام في الطريق فأصبح ميتاً و لم يعرف سبب موته و قيل بل وجد في ساقية من سواقي برقة مخنوقاً بتكّة سراويله.» (الأب شيخو، بلا، ج ٥: ١١)

٢- جاء في كتاب شهداء الفضيلة: «ثم استأذنه في العود إلى المغرب ليأتي بعائلته فلما وصل إلى برقة أقم عند رجل من أهلها أياماً فقبل إنهم عربدوا عليه فقتلوه و قيل وجد في ساقية من سواقي برقة مخنوقاً.» (الأميني، بلا، ٢٠)

٣- ذكر جرجي زيدان في كتابه تاريخ الأدب العربي رواية تخالف شيئاً ما المجالي الحديثة حيث يقول: «فوصل برقة فأضافه شخص من أهلها فأقام عنده أياماً في مجلس أنس و يقال إنه خرج من تلك الدار و هو سكران فنام في الطريق فوجده ميتاً.» (زيدان، بلا، ج ٢: ٥٦٣)

٤- يذكر حنا الفاحوري في كتابه تاريخ الأدب العربي ما نصه: «وفيما هو في طريقه إلى مصر توقف في برقة عند رجل أضافه فراح يقصف و يسكر و بعد ذلك وجد في السوق ميتاً و هو لم يتجاوز ست و ثلاثين من سنه. و قيل إن الندامي المربردين قتلوه أو إن سكرة الشراب قاده إلى سكرة الموت و كان ذلك عام ٣٦٢ هـ.ق.» (الفاحوري، بلا، ٨٢٩)

٥- قال صاحب جواهر الأدب ما نصه: «و لما وصل إلى برقة مات بما سنة ٣٦٢ هـ، و عمره ٣٦ سنة.» (الهاشمي، بلا، ج ٢: ١٩٨)

٦- قال صاحب أدب العرب ما نصه: «ولما فتح القائد جوهر مصر و بنى القاهرة انتقل إليها المعزّ و بعد مدة لحق به شاعرنا فمات في الطريق و لم يبلغ أربعين سنة ٣٦٢ هـ.ق.» (الإسكندري، آخرون، بلا، ج ٢: ١٣٣)

٧- قال صاحب تأسيس الشيعة ما نصه: «حتى قتل على التشيع في يوم الأربعاء لسبع ليالٍ بقين من رجب سنة اثنين و ستين و ثلثمائة وعمره ست و ثلاثون سنة.» (الصدر، بلا، ٢٠٧)

لو دققنا النظر في هذه الأقوال لوجدناها متفقة على أمور منها محل القتل، و سنة القتل، ولكن اختلفت الأقوال في سبب القتل و كفيته، فانظر إلى تضارب الأقوال و الأحاديث الملققة، فمنهم من قال عربد فقتل، وقال آخر عربدو عليه فقتل، ومنهم من يقول نام في الطريق فمات، ومنهم من يقول قتل مخنوقاً، ومنهم من يقول إن سكر الشراب قاده إلى سكرة الموت و إنه ألقى في مجرى الماء فمات و لربما ضربوه حتى القتل. و هنا أسئلة كثيرة منها كيف يُضَيِّفه رجل غريب؟ علماً بأن الرجل المسلم لا يقتل ضيفه كما جاء في الخير: أكرم الضيف و لو كان كافراً. و الظاهر أن القتل في هذه الحادثة هو سيد الموقف في أفواظهم، و يبدو أن الشهادة أقرب إلى الحقيقة.

٢: أدبه

٢-١ تحت ظل الأدب

مما لا شك فيه أن الأديب ولد و نشأ في عاصمة الثقافة الإسلامية الأندلس ذات الطابع العلمي و الأدبي، حيث ترعرع كبار العلماء و الأدباء في ظلها، و بقيت الأندلس تحمل الثقافة الإسلامية برهمة من الزمان، رائدة في سماء الأدب و العرفان، وها هم أصحاب القلم و البيان يُثرون المدائح على ابن هانيء قائلين:

١- نشأ ابن هانيء في تربة خصيبة بالعلم و الأدب، إذ كانت إشبيلية آنذاك في عصرها الذهبي، تزخر بالثقافة و الحضارة، فنظم الشعر و برع فيه. (الفاخوري، بلا، ٨٢٨).

٢- نشأ بما (إشبيلية) نشأة راقية تحظى فيها بأدب وافر و حفظ أشعار العرب و أخبارها. (الأميني، بلا، ٢٠).

٣- نشأ بما (إشبيلية) و كان شاعراً مطبوعاً. (زيدان، بلا، ج ١: ٥٦٢).

٤- يقول البستاني: انسحب هذا المناخ السياسي و الفكري على نتاجه الشعري فأفرز نماذج شعرية تصب في حقل الأدب الإسلامي الملتزم بمخافة مودة النبي (ص) و أهله بيته (ع). (البستاني، ١٩٩٠ م، ٦٤٨). و يستمر قائلاً: و من الحقائق المعروفة لدى مؤرخي الأدب أن هذا الشاعر يمثل أبرز شاعر عرفته

البيئة المغربية، حتى أن المؤرخين أشاروا إلى أن بيئة المشرق إذا كانت قد أفرزت الشاعر المتميز المتسني فإن بيئة المغرب أفرزت شاعراً مماثلاً هو ابن هانيء الأندلسي. (ام ن، ٦٤٩).

٥- يقول زيدان: و على كل حال فإنه أشعر أهل الأندلس على الإطلاق. (زيدان، ج ١: ٥٦٣).

٦- يقول الهاشمي: إنه شاعر الغرب و متنبّيه. (الهاشمي، ج ٢: ١٩٧).

٧- ذكر الفاخوري نقلاً عن المعزّ لما بلغه خبر وفاته: هذا الرجل كنا نرجوا أن نفاخر به شعراء الشرق، فلم يقدر لنا ذلك. (الفاخوري، بلا، ٨٣٠).

٨- قال ابن خلكان: ليس في المغاربة من هو في طبقة لا من متقدمهم و لا من متأخريهم بل هو أشعرهم على الإطلاق (الأب شيخو، ١٩٩٨ م، ج ٥: ١١).

٩- يقول العلامة الصدر: «قال الشيخ محمد بن الحسن الحرّ العاملي في أمل الآمل: إنه فاضل شاعر أديب صحيح الاعتقاد...». عدّه ابن شهر آشوب من شعراء أهل البيت (ع) ... و أخيراً يعلن رأيه فيه قائلاً: و الحق أنه من الآيات الباهرة و النوادر النادرة. (العلامة الصدر، بلا، ٢٠٦).

وقال صاحب الغدير: و في شهرة ابن هانيء و نبوغه في الأدب العربي و قرض الشعر غني عن أي اطراء و ثناء و لقد توارثت مدائح مهرة الفن له و إذعافهم بعبقريته التي قيل فيه:

إن تكن فارساً فكنّ كعليّ أو تكنّ شاعراً فكنّ كابن هانيء

(الأميني، بلا، ٢٠)

كانت هذه بعض الآراء في مدح الشاعر من قبل أكابر أهل العلم و أهل النظر من أصحاب الفن، إنسه لآية في الأدب و راية في الشعر والبيان، و إنه يستحق هذه المدائح و أكثر.

٢-٢ مزلته الفنيّة

لقد قام بعض الأدباء بدراسة أدبية لبعض الجوانب الفنية لشعر ابن هانيء، و كل نظر إليه من زاوية خاصة، فلنقف عند بعض هذه الآراء:

أ: يقول الفاخوري في هذا الصدد: أولع شاعرنا بطريقة المتنبّي و سار على منهاجه، فتطلّب القوة في أفكاره و أوزانه و ألفاظه (الفاخوري، بلا، ٨٣٠)، و غالى في المديح كسائر الشعراء حتى إذا مدح جعل الممدوح أفضل الناس طراً بل جمع له صفات الكمال، كما هو المشهود في المثال التالي:

هُوَ عِلَّةُ الدُّنْيَا وَمَنْ خُلِقَتْ لَهُ وَلِعَلَّهُ مَا كَانَتْ الْأَشْيَاءُ

ليست سماء الله ما تروها لكن أرضاً تحوتويه سماء
نزلت ملائكة السماء بنصره وأطاعه الإصباح والإمساء

و أكثر ابن هانيء من وصف الجيوش و المعارك كما صنع المتنبي، و كان شعره جزلاً قوي الأثر، يكثر فيه الغريب من الألفاظ.

باء: و يري أحمد الهاشمي: لم ينبغ في شعراء جزيرة الأندلس و لا بر المغرب جميعه من يفوق ابن هانيء في صناعة الشعر أو يساويه، فقد كان عندهم في الشهرة و الإحادة و شرف الشعر بمنزلة المتنبي عند المشارقة، و من قوله في وصف الخيل:

وصواهل لا الهضب يوم مغارها هضب و لا البيد الحزن حزون

(الهاشمي، بلا، ج ٢: ١٩٨)

جيم: يقول البستاني: و لعل أبرز سماته الفنية تتمثل في أحكام عبارته الشعرية و متانتها، ثم في إشراقها و نعومتها و انسيتها، ثم في توفقه على صياغتها وفق مبادئ إيقاعية و لفظية تتوازن و تتقابل و تضاد و تتكرر المفردات و التركيبات من خلالها بنحو محكم و مشرق و مثير و طريف ... مضافاً إلى توفقه على صياغة الصور الفنية التي تتميز بالعمق و البساطة و بالطرافة دون أن يثقلها بالتكثيف و لا بالتفريع و لا بالتغريب ... (البستاني، ١٩٩٠ م: ٦٤٩).

٢-٣ ردء القمام

لقد ذكر بعض المصادر أن ابن هانيء كان يغالي في المديح و يخلق من الممدوح إلهاً، مستندين في ذلك إلى قول ابن خلكان الذي اعتمد في مصدره على الحقد، و نعوذ بالله لو جاشت الأحقاد في الصدور فألها لتعمي الأبصار، فيكون الباطل حقاً و الظلم عدلاً، و أظن أن القوم ما تابعوا و ما شايعوا ابن خلكان إلا و كان الحسد إماماً لهم، و ذلك لأن ابن هانيء كان قد فاق أقران عصره شعراً و أدباً و فناً، و اشتهر نجمه في سماء الأدب، و أصبح آية في عصره، حتى وصلت به الرتبة الأدبية إلى منزلة المتنبي، فكيف لا ترمي الأعداء إليه سهام التهم؟ علماً أن أكثر الشعراء بالغوا في مديحهم من أجل اكتساب لقمة العيش فلم يتهموا بالكفر فانظر على سبيل المثال إلى قول ابن نباته:

و باسمك في الدنيا استقرت محاسن و بأس كما يمضي القضاء محتما
و دامت يد النعمى على الملك الذي تدانت له الدنيا و عزيه الحمى

فالقضاء الحتمي بيد الله، و الذي تدانت له الدنيا هو الله سبحانه، الذي إذا أراد شيئاً فيقول له كُن فيكون، فكيف لم يكن ابن نباتة كافراً؟ بل إنما العصبية العمياء تعمل ما تشاء. ثم اعلم أن أصابع التهم

توجه نحو شعراء الشيعة فقط، فإذا ذمّ دعبيل العباسيين فيصبح هجاء للملوك وإذا مدح ابن هانيء بعض الخلفاء الفاطميين فيصبح كافراً. فالإي الله المشتكى و عليه المعول في الشدة و الرخاء. و الآن ننظر إلى القولين التاليين:

أ: يقول ابن خلكان عنه عند ذكر ديوانه: لولا ما فيه من الغلو في المدح و الإفراط المفضي إلى الكفر لكان من أحسن الدواوين.

باء: و يقول آخر: و يمتاز شعر ابن هانيء بالمبالغة الكثيرة في المديح و الإفراط إلى حد الكفر. و إليك الرد حسبما قاله السيد الصدر: قلت يريد بقوله في العلويين بمصر:

ماشئتَ لأمانيَّ الأقدارُ فاحكمُ فأنت الواحدُ القهارُ

هذا من باب التورية لا على الحقيقة كما لا يخفي على الخبير بأحوال ابن هانيء، و هو بريء من كل سوء و غلو، نعم هو رجل شيعي مجاهر بالتشيع مبغض لخصوم الإمام علي عليه السلام. (العلامة الصدر، بلا، ٢٠٧).

٢-٤ ديوانه

له ديوان شعر مرتب حسب حروف الأبيجد، طبع مراراً في بولاق سنة ١٢٧٤ هـ وفي بيروت سنة ١٨٨٤م، و يشمل على المدايح المصدرة بالغزل و له المراثي و الوصف و أغراض شعرية أخرى، و يعد الديوان من أنفس الآثار الأدبية.

٢-٥ نموذجان من شعره

أ: قال بمدح يحيى بن علي بن غليون و الي المسيلة:

فَتَكَاتُ طَرْفَكَ أَمْ سَيُوفُ أَيْبِكَ	وَكُؤُوسُ حَمْرٍ أَمْ مَرَاشِفُ فَيْبِكَ؟
أَحْلَادٌ مُرْهَفَةٌ، وَ فَتْكُ مُحَاجِرٍ؟	مَا أَنْتِ رَاحِمَةٌ، وَ لَا أَهْلُوكِ
يَا بِنْتَ ذِي الْبُرْدِ الطَّوِيلِ نَجَادُهُ	أَكُنَّا يَجُوزُ الْحُكْمُ فِي نَادِيكَ؟
قَدْ كَانَ يَدْعُونِي خَيْالُكَ طَارِقًا	حَتَّى دَعَانِي بِالْقَنَا دَاعِيكَ
عَيْنِكَ أَمْ، مَغْنَاكَ مَوْعِدُنَا، وَ فِي	وَادِي الْكُرَى أَلْفَاكَ أَمْ وَادِيكَ؟
مَنْعُوكِ مِنْ سَنَةِ الْكُرَى وَ سَرَوَا، فَلَوْ	عَشَرُوا بِطُفِيفِ طَارِقِ ظَنُّوكِ
وَ دَعُوكِ نَشْوَى مَا سَقُوكِ مُدَامَةً	لَمَّا تَمَائِلَ عِطْفُوكِ أَتْهَمُوكِ
حَسِبُوا التَّكْحُلَ فِي جُفُونِكَ، حَلِيَّةً	تَاللَّهِ مَا بَأَكْفَهُمْ كَحَلْوِكَ

ورأى الخليفة منك بأس مهتد
 وغدت بك الدنيا زبرجدة جلت
 وفعات نصر في الأعادي حدثت
 هل أنت تارك نصل سيفك حقة
 لولا يستطيع الليل لاستعدى على
 لاقيت كل كنية، وفلت كل
 بينديه، من روح الشعاع سبيك
 عن نعر لؤلؤة، إليك، ضحك
 عن يوم بدر، قلبها، وتبوك
 في غمده أم ليس بالمتروك؟
 مسراك، تحت قناعه الحكوك
 ضريبة، وألنت كل عريك

باء: و قال بمدح الخليفة الفاطمي المعز لدين الله بعد فتحه مصر. (العلامة الصدر، ج ٥ :

١٥).

ما شئت لا ما شاعت الأقطدار
 وكأتما أننت النبي محمد
 أنت الذي كانت تُبشّرنا به،
 هذا الذي تُجدي شفاعته غداً،
 من آل أحمد، كل فخر لم يكن
 كالبدر، تحت عمامة من قسطل
 فاحكم، فأنت الواحد القهار
 وكأتما أنصارك الأنصار
 في كئيبها، الأخبار والأخبار
 حقاً، وتحمّد أن تراه النار
 يُنمى إليهم ليس فيه فخار
 ضحيان، لأخفيه عنك سرار

مرت لغايتها، فلا والله ما
 وعلى مطاها فتية شيعية،
 من كل أغلب باسل، متخمط
 قلق إلى يوم الحاج، مفاصر
 أبناء فاطم! هل لنا، في حشرنا
 أنتم أحبنا إليه وألوه،
 أهل النبوة والرسالة والهدى
 إن قيل: من خير البرية؟ لم يكن

و في الختام نقول: بوركت يا ابن هانئ يوم ولدت و يوم قتلت مظلوماً و يوم تُبعث حياً. وإنك

الأديب حقاً.

النتيجة

إن ما توصلنا إليه هو:

- ١: نفي الغلو في أدب ابن هانئ ولاسيما في شعره.
- ٢: إثبات القتل و الشهادة له من قبل أعدائه.
- ٣: له مقام ومترلة عظيمة لدى الأدباء والنقاد بحيث أصبح علما من الأعلام. عسانا قد أصبنا الحق والحقيقة، راجين من الله التوفيق لنا و لكم.

المصادر

- الإسكندري، أحمد، آخرون، (١٩٥١ م). «أدب العرب»، القاهرة: المطبعة الأميرية.
- الفاخوري، حنا، «تاريخ الأدب العربي»، لبنان: المطبعة البولسية.
- البستاني، محمود، (١٩٩٠م). «تاريخ الأدب العربي»، بيروت: مجمع البحوث الإسلامية.
- زيدان، جرجي، «تاريخ آداب اللغة العربية»، بيروت: دار مكتبة الحياة.
- الصدر، السيد حسن، «تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام»، طهران: منشورات الأعلمي.
- الطاشمي، أحمد، «جواهر الأدب»، بيروت: مؤسسة المعارف.
- الأميني، «شهداء الفضيلة»، قم: دار الشهاب.
- الأب شيخو، (١٩٩٨م). «الجانح الحديثة»، ط ٤.